راسم عبيدات:
"من ذاكرة الأسر"

ناقشت الندوة كتاب "من ذاكرة الأسر" للكاتب راسم عبيدات الذي صدر أواخر العام 2008، ووقع في 186 صفحة من الحجم الكبير .

جميل السلحوت:

واضح أن الكاتب استفاد من تجربته الاعتقالية التي زادت على الخمس سنوات، والتي أوحت إلى الكاتب بمضمون كتابه الذي سبق وأن قرأناه في حلقات، كل واحدة منها على شكل مقالة في صحيفة القدس، وفي عدد من الصحف والمنتديات الإلكترونية. ومع أن الكتابة عن حياة الأسر ليست جديدة على الشعوب، التي عانت من الاحتلال أو

obeikandl.com

الأفراد الذين تعرضوا للاعتقالات لآرائهم السياسية، فإنها ليست جديدة بالنسبة إلى الشعب الفلسطيني، الذي يعاني من ويلات الاحتلال. غير أن راسم عبيدات في هذا الكتاب لم يكرر أحدًا من سابقيه، فقد كتب عن حوالي سبعين أسيرًا التقاهم في السجن، وقضى أشهرًا أو سنوات معهم في غرفة واحدة. كتب عن قصة صمودهم، وعن حياتهم كبشر حُرموا من حقهم الإنساني في حياة كريمة في أحضان عائلاتهم، ولكل منهم قصته الخاصة التي تعبر عن تضحية كبيرة وعن معاناة أكبر. وبعضهم قضى في الأسر أكثر من ثلاثين عامًا دون أن تلين له قناة، مع أنهم بشر يحلمون بالحرية، وبالزواج وبرعاية الأسرة، وبالعمل وبالعلم، لكنهم ارتضوا لأنفسهم طريق النضال لتحرير وطنهم وشعبهم من نير احتلال بغيض. وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن فلسطينيي الضفة الغربية وقطاع غزة الذين وقعوا تحت الاحتلال الغاشم في حرب حزيران 1967 العدوانية، قد اعتقل منهم ما يزيد على سبعمائة وخمسين ألف مواطن، من بينهم أطفال ونساء، فإن هذا يعني أن حوالي (90٪) من البالغين الفلسطينيين قد جرب الاعتقال والسجن والتعذيب.

ولا يزال حتى أيامنا هذه أكثر من أحد عشر ألف أسير يقبعون في سجون الاحتلال في ظروف غير إنسانية، وبعضهم محكوم بمئات السنين.

راسم عبيدات في كتابه هذا لا يكتب سيرة ذاتية للمناضلين الأسرى الذين كتب عنهم، بمقدار ما كتب عن سيرتهم النضالية ومواقفهم ومتطلباتهم الإنسانية، فهم ليسوا أبطالاً خارقين للعادة، بل هم بشر من لحم ودم، يحلمون بالعيش الكريم كبقية البشر.

وقد تعرض الكاتب عبيدات في كتابه إلى التعذيب والتحقيق القاسي الذي يخضع له المعتقلون في مراكز التحقيق الاحتلالية. كما كتب عن الممارسات اللاإنسانية لإدارات السجون الاحتلالية في تعاملها مع الأسرى، كما لم يغب عن كتابه تمامًا، مثلما لم يغب عن ذاكرته، أولئك المائة وثلاثة وتسعون شخصًا الذين ارتقوا إلى قمة المجد شهداء وهم في الأسر، نتيجة للتعذيب أو سوء الرعاية الصحية .

وانتقد في كتابه بشدة إهمال قضية الأسرى، وعدم بذل كافة الجهود لإطلاق سراحهم. كما أبدى امتعاضه الشديد لاستثناء أسرى القدس وأسرى داخل الخط الأخضر من عمليات تبادل الأسرى.

ديمة السمان:

"نحن أمام أسرى يتحايلون على الزمن، ويؤجّلون موتهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. يقاومون الحديد والتجاهل والإهمال وقوات القمع، حيث يربون الأمل، ويجترحون التفاؤل. يقاومون بأسلحتهم

الإراديّة جوعًا.. صبرًا.. قراءة. يتسلحون بنبوءاتهم الأسطورية التي هزمت السجان أكثر من مرة، وجعلت من السجون خنادق ومدارس وأماكن ولادة جديدة للمقاومة وللحياة".

وقفت مليًّا عند تلك السطور المنتقاة من مقدمة كتاب "من ذاكرة الأسر" للمناضل راسم عبيدات، حيث قدم له الأخ عيسى قراقع، وقد أحسن أخي راسم الاختيار.

كلمات تخترق العقول والقلوب، وتتفاعل مع المشاعر والأحاسيس لتزيدها تأججًا، وتزيدها التهابًا، فتصل إلى كل عصب في كل ضمير حيّ لتشعره بالتقصير تجاه شهداء مع وقف التنفيذ..

تجاه أناس يقاومون بشراسة سحرية سياسة نزع الوطنية عنهم، وإدراجهم في خانة الإرهابيين المجرمين.

تجاه أناس يطلبون كسائر البشر العيش بكرامة الإنسان الحر على أرض وفي دولة لها كامل السيادة.

تجاه أناس يعيشون معاناة جسدية ونفسية وراء قضبان سجّان يدّعي الديمقراطية، يعتبر نفسه فوق القانون، وهو في الحقيقة بعيد كل البعد عن القيم الإنسانية والأخلاقية والدينية.

تجاه أناس أصرّوا على أن يكسروا عزلتهم، ففتحوا شبابيك لا يراها السجان، وتواصلوا مع المجتمع والناس.

"من ذاكرة الأسر" كتابٌ أهداه كاتبنا إلى الأسرى، وإلى كل شهداء شعبنا الفلسطيني عمومًا، وشهداء الحركة الأسيرة خصوصًا، فهو توثيق لما يحدث داخل السجون، وتسجيل لبشاعة ممارسات السجان.

تنقل صفحاته المعاناة الحقيقية خلف القضبان لأسرانا من خلال قصص حقيقية تتحدث عن يومياتهم، لا يشعر بعذابها إلا من عاشها وخاض التجربة، وقد عاشها أخي راسم وسجّلها ليلقي الضوء على ذلك الواقع المرير، ويعيد الاعتبار لقيمة الإنسان والحرية، التي تحولت إلى "رقم" لدى بعض من لا يدرك مدى حجم الخطر الذي بات يتهدد حياة الأسرى وأسرهم ومستقبلهم، فهم لا يعلمون أن وراء كل أسير قصة، وخلف كل باب بيت أسرةِ أسيرٍ معاناة، قد تتحول إلى مأساة حقيقية، تزيد من حجم هموم الأسير، وتشعره بعجز المُكبّل بسلاسل حديدية من الصعب كسرها.

لقد شعرت حقيقة بمرارةٍ يصعب وصفها عندما قرأت حتى الصفحة (117)، وهي الصفحات التي خُصّصت في الكتاب عن قصص الأسرى وواقعهم المرير وأحلامهم.

وبذكاء طعّمها الكاتب ببعض النهفات والمواقف الطريفة التي حصلت معهم لتكون "طُعمًا" بمثابة السكر المضاف إلى العلقم ليسهل بلعه، فنجح، ووصل، وشربه القارئ برضاه، ودون مقاومة، فضحك

وضحك، ليكتشف أنه كلما ضحك أكثر كلما ازداد تركيز طعم المرارة العالقة بحلقه، والذي يزيد من شعوره بالعجز والتقصير بحقهم، خصوصًا نحو المرضى منهم؛ فقد صدف أن التقيت بالدكتور عبد الله أبو هلال، طبيب والدة الأسير المريض محمد صالح خنافسة من أبو ديس، المذكور في الكتاب (ص100)، فتحدث د. عبد الله عن وضع أمّ محمد الصّحي، حيث ارتفعت نسبة السكر عندها إلى درجة تنذر بالخطر، وعندما لامها، وسألها لماذا لا تلتزم بالحمية؟ قالت تحترق: عن أية حمية تتحدث يا بنيّ، فأنا لم أتناول الطعام منذ أسبوع، منذ آخر زيارة لمحمد، فلا يوجد عندي شهية لتناول أيّ طعام، فقد انخفض وزن ابني من (135كغم) إلى (70كغم). مرضه يستفحل. أراه يذوب أمامي كالشمعة وأنا عاجزة عن فعل أيّ شيء لإنقاذه...".

صرخة من قلب أمّ ينزف على ابنها، فهل من مجيب؟

أما بقية صفحات الكتاب حتى آخر صفحة في الكتاب (ص186)، فقد تناولت بعض المقالات السياسية التحليلية، والتي تتحدث في مجملها عن الأسرى وتعذيبهم، والوسائل الحقيرة من قبل السجان معهم، وعن اعتبارهم وفق القانون الإسرائيلي المخالف لكل الأحكام والقوانين الدولية (مقاتلين غير شرعيين)، وبهذا لا يعتبرونهم أسرى حرب. كما يتحدث أخي راسم عن حقوق أسرانا وواجبنا نحوهم، ويستصرخ

الحكومة لإدراج قضية الأسرى على قمة سُلّم أولوياتهم، ويدعوهم لإيجاد وسائل وطرق مجدية لتحرير أسرانا البواسل.

كما ويؤكد أن هناك إجحافًا فلسطينيًّا غير مبرر بحق أسرى 1948، حيث تم التسليم بالشروط والمواقف الإسرائيلية، بأن أسرى شعبنا الفلسطيني من مناطق 1948 هم جزء من دولة إسرائيل، وبالتالي لا يحق للسلطة التكلم باسمهم. وهكذا لا يتم شملهم في أية عمليات إفراج في إطار التفاوض مع السلطة الفلسطينية.

وتحدث عن مبادرات حسن النوايا من طرف واحد، وعن صفقات التبادل.

ولم يغفل (أبو شادي) عن التطرق لرحلة عذاب أهالي المعتقلين الذين يتوجهون إلى السجون لزيارة أبنائهم؛ فقد تحدث بإسهاب عن ذلك المسلسل الذي وصفه بالمعاناة المتواصلة، فهم يُتركون تحت حر أشعة الشمس اللاهبة ساعات وساعات في ساحة المعتقل صيفًا، وزمهرير برد الشتاء القارس شتاءً. كما أشار إلى مزاجيّة السجان، ومنها ما يخص السماح لأهالي المعتقلين وأطفالهم بالتسليم عليهم.

فتحيّة لجميع أسرانا البواسل الذين يمتلكون الإرادة ويختزنون الطاقة، والذين يؤمنون بعدالة قضيتهم، وحتمية انتصارهم وتحررهم، فهم يدرسون ويطوّرون خططهم وبرامجهم وأساليبهم، التي تمكنهم من

التغلب والانتصار على إدارات السجون، وهزيمتها في هذه المعارك النضالية.(كما جاء في الكتاب ص178).

وتحية لأسرانا البواسل الذين ترفّعوا عن الفئوية، و توحدوا تحت راية العلم، ودعوا إلى الوحدة الوطنية، وخرجوا بوثيقة الوفاق الوطني، فهم يؤمنون بأنها الطريق المعبد نحو الحرية.

فلنتبنّ وثيقتهم، ولنمشي في طريقهم، علّنا نفتح بها أبواب النّصر والحرية.

تحيةً لمبادرة أخي راسم الأسير المحرر..

تحيّةً لكل مبادرة، ولكل مؤسسة تسعى وتعمل من أجل إطلاق سراح أسرانا والعودة بهم إلى دفء أجوائهم العائلية، خصوصًا المرضى منهم، فقد قدّموا الكثير، وجاء دور الفرد والمؤسسة لتفعيل الشارع الفلسطيني والعربي، ومناشدة جميع المؤسسات الدولية والإنسانية، التي تعنى بحقوق الإنسان، لتأخذ دورها، وتقوم بواجبها تجاه أناس يدافعون عن حقوقهم، وحقوق شعبهم ووطنهم.

فلتتشابك الأيدي، ولنقف وقفة رجل واحد؛ نشنّ حملة إعلامية واسعة مدروسة لإطلاق سراح أسرانا الأبطال.

معًا.. لن نضلّ الطريق، وسنصل بإذنه تعالى إلى طريقنا المنشود.

موسى أبو دويح:

الكتاب مرصوص بأخبار الأسرى المناضلين، بأسمائهم وألقابهم وكناهم، وعيشهم في سجون ومعتقلات الاحتلال الجاثمة على كل أرض فلسطين. وحتى لا يزداد الكتاب طولاً، جمع الكاتب بين كل أسيرين مناضلين معًا فيما كتبه عن رفقائه المناضلين المعتقلين.

والكتاب وثيقة فلسطينية، تتناول شريحة من شرائح النضال الفلسطيني، شريحة عريضة جدًّا، يزيد عددها على عشرة آلاف معتقل دائمًا، فإذا ما حان موعد الإفراج عن عدد من الأسرى، وجدنا سلطات الاحتلال تعتقل عددًا أكبر منه لأيّ شبهة وأيّ تهمة، زعمًا منها للحفاظ على أمن إسرائيل، الذي أتوقع ألا تشعر به إسرائيل يومًا ما دامت تواصل احتلالها.

والكتاب مهدى إلى الأسرى الفلسطينيين وغير الفلسطينيين، الذين عايشهم الكاتب خلال سجناته المتعددة- حيث سجن الكاتب أكثر من مرة وسنين متعددة، وطوّف في أكثر سجون الاحتلال الإسرائيلي في فلسطين، إن لم يكن فيها جميعًا-، بل هو مهدى إلى كل الأسرى المناضلين الذين عرفهم الكاتب، والذين لم يعرفهم. وهو مهدى، أيضًا، إلى شهداء فلسطين عمومًا، وإلى شهداء الحركة الأسيرة خصوصًا.

ومقدمة الكتاب بقلم عيسى قراقع، بيّن فيها للقارئ صورة موجزة عن الكتاب الذي يتحدث عن الأسرى الفلسطينيين من سنة 1967 وإلى الآن، وعن معاناة أهالي الأسرى الدائمة المستمرة، وعلى الأخص خلال زياراتهم لأبنائهم وأقربائهم، وما يلاقيه الأسرى في سجونهم من ظلم وعسف من سلطات الاحتلال، وكيف يعيش الأسرى في معتقلاتهم، وكيف يقضون أوقاتهم.

إن المدقق في الكتاب يجد أن هناك ميزة ظاهرة وفرقًا بينًا بين الأسرى في سجون الاحتلال والأسرى الآخرين في أي سجن من سجون العالم. تلك الميزة، وذلك الفرق، هو ما يكتسبه الأسير الفلسطيني خلال سجنه من علم وأدب وثقافة، ندر أن يحصل عليها أو على مثلها، حتى لو لم يدخل السجن. ذلك أن عامّة الأسرى الفلسطينيين من الحزبيين الذين يحملون أفكارًا، ويعملون جاهدين لنقلها إلى الغير، فالسجن عندهم مدرسة ومعهد وكلية، بل وجامعة تخرّج أناسًا غير الناس الذين دخلوا السجن؛ فكم من أسير تعلم القراءة والكتابة في السجن! وكم من أسير تعلّم العربية والعبرية وغيرهما من اللغات في السجن! وكم من أسير تخرّج من الجامعات وهو يقبع في السجن! وكم من أسير كتب كتابًا أو أكثر وهو رابض خلف القضبان!

لم يخل الكتاب من المضحك المبكي مثل: من ذاكرة التحقيق/ حكايتي مع الكندرة. وما درى الكاتب أن الله سبحانه قد رزقه بتلك الكندرة، حتى لا يشعر بآلام المحققين، لأن ألم المسامير بداخل تلك الكندرة كان أشق وأشد، وهذا ما جعل موقفه صلبًا أمام المحققين، ولم يكن من همّ له سوى التخلص من تلك الكندرة الملأى بالمسامير التي كان يشعر أنها تدق في دماغه.

بقي أن نشير إلى أن الكاتب دوّن بعد كل عنوان من عناوين الكتاب تاريخًا بدأه من 16/ 10/ 2007 إلى تاريخ 10/ 7/ 2007، حيث شمل هذا القسم خمسة وثلاثين عنوانًا، أطلق عليها الكاتب عنوانًا رئيسًا هو "من ذاكرة الأسر"، وبعدها سبعة وعشرين عنوانًا لمواضيع متعددة، ولكنها جميعًا لها علاقة مباشرة بالأسر والأسرى، ودوّن لكل عنوان تاريخًا بدأه من 2/ 7/ 2007 إلى 2/ 7/ 2008. ويلحظ أن التواريخ متداخلة.

أما موضوع الأخطاء الإملائية والنحوية والصرفية والطباعية فتحتاج إلى بحث مستقل، حيث لا تكاد تخلو صفحة من الكتاب من خطأ أو أكثر.

وختامًا، الكتاب وثيقة مهمة وضرورية ومفيدة في موضوع الأسرى الفلسطينيين، حيث عالج أكثر النواحي المتعلقة بالأسرى.

ولا بد من الإشارة إلى أنه قد صدر للكاتب "صرخات في زمن الردّة" في سنة 2007 في حوالي (400) صفحة، وهو كذلك مقالات مؤرخة من 2003-2007، جمعها الكاتب في كتاب، فقلم الكاتب سيّال.

محمد موسى سويلم:

بدأت قراءة كتاب "من ذاكرة الأسر" إلى أن وصلت الصفحة الثامنة، وهي المقدمة التي كتبها الأخ عيسى قراقع، في السطر العاشر: "الذي جرى بعد انقلاب حماس في غزة". لم أفهم كلمة انقلاب، أو وجود دولة هناك لها أنظمتها وحدودها ومعايرها واقتصادها وحكومتها، وأن هناك انقلابًا عسكريًّا أطاح بالحكومة القائمة، وأعلن نظام الطوارئ، واستبدل النظام الدكتاتوري بنظام جمهوري، أو نظامًا ملكيًّا بنظام ديمقراطي. ليتنا نترفع عن هذه المسميات.

ثم سارت القراءة إلى أن وصلت صفحة مئة وسبعة وعشرين، والتي تضمنت الكتابة عن الأسرى الذي التقى بهم الكاتب، فوجدت أن هناك عبارات وصف مثل: الأسير فلان، والمناضل فلان، والرمز فلان. فهل هناك فرق بين أسير مناضل وأسير مجرد من النضال؟

في الصفحة (119): "سيجري التراجع عنه تحت نفس الحجج والذرائع والتبريرات لأن الوضع الأمني والأوضاع الداخلية في إسرائيل

والظروف الإقليمية لا تسمح بتنفيذ ما تم الوعد به". إسرائيل لم تنفذ وعدًا، أو عهدًا، أو اتفاقًا، ليس كما ورد في الصفحة (118): "دائمًا تقول لا يوجد شريك فلسطيني"، بل للمثل القائل "يا فرعون مين فرعنك؟ قال: قلة رجال تردني". هذا من جهة أنه لا يوجد تفاوض حقيقي مع إسرائيل، وأعود بالذاكرة إلى ما سمي مؤتمر مدريد، حيث لم يكن هناك وفد فلسطيني مستقل، بل تحت مظلة الوفد الأردني، ثم لنسلم جدلاً بأن هناك وفدًا فلسطينيًّا، أتذكر حين ألقى إسحاق شمير كلمة قال فيها: سنترك أنا وزملائي القاعة قبل عصر هذا اليوم لدخول اليوم المقدس. وترك القاعة أو المؤتمر فعلاً، وأن المفاوض الفلسطيني الدكتور المرحوم حيدر عبد الشافي- الذي أحترمه كما يحترمه الكثير من أبناء شعبي- ألقى كلمة دون وجود الوفد الإسرائيلي، وقال آنذاك إنه رغم يوم الجمعة آثرنا البقاء هنا. ثم للأسف أنه كان وفد يفاوض في واشنطن وآخر في أوسلو، وآخر مش عارف وين! ثم في الصفحة (118): "ما تريده إسرائيل وأمريكا هو فلسطيني على شاكلة كرزاي أو المالكي أو أنطوان لحد وغيرهم". وفي مكان آخر "يأتي جلبي أو كرزاي فلسطيني" (ص119)، كأن إسرائيل والدول العربية، ولا أقول أمريكا أو أوروبا، عاجزة عن الإتيان بأشخاص كمن سميتهم! إذًا ماذا نقول عن روابط القرى في ثمانينيات القرن المنصرم؟ وماذا نقول عن العملاء؟ وماذا نقول عن

"العصافير" في السجون؟ وماذا نقول عن المخترقين لجبهتنا الداخلية؟ وماذا نقول عن الدايتونيين؟ وماذا نقول عن.....؟ الخ. لكنني أقول إن إسرائيل ترفض تنفيذ كل الاتفاقات والمواثيق والأعراف الدولية.

أتذكر هنا قوله تعالى: {أم لهم نصيب من الملك فإذًا لا يؤتون الناس نقيرًا}. وقوله: {كلما عاهدوا عهدًا نقضه فريق منهم}.

هذا ما نرى من سقوط للحكومات.

ورد في الكتاب أكثر من مرة "المشروع الوطني"، إذا كنت تبحث عن وطن فكما قال الشاعر: "بلاد العرب أوطاني"..... الخ، ولكن أقول أنا المسخم، إن الصراع ليس صراعًا وطنيًّا أو قوميًّا أو... إن الصراع هو صراع عقديّ، و لو كان صراعًا وطنيًّا لاكتفى الرسول (صلى الله عليه وسلم) حين هاجر إلى المدينة، وأقام دولة الإسلام، لاكتفى حينها بذلك، ولم يعد إلى مكة، إلا أن الصراع كان عقديًّا بينه وقريش، وكذلك الأمر بيننا ومَن تدعى إسرائيل، وإسرائيل (عليه السلام) بريء منها. إنه صراع عقديّ لا تحله المواثيق، ولا الاتفاقات الدولية، وإنما الإيمان والعودة إلى الله، والإيمان بوعده .

حين وصلت الصفحة (116) أردت أن لا أكمل القراءة، ولكن لاطلاعي على المقالات الكثيرة للكاتب قلت: لعل الأعمال بالخواتم، فقد وجدت أنه كتب عن لقائه ببعض الأسرى، وأنه سرد ما يمكن من

تجاربهم وتجربته الشخصية، وأنه لا يكتب لهدف مادي بقدر ما أنه يريد إظهار الحق والحقيقة دون تميز بين أسير وأسير، أو بين فصيل وفصيل. وما أن قرأت المقال الأول "أولمرت وملف الأسرى الفلسطيني"، حتى عدت إلى القراءة الجادة، ولكن أسأل: لماذا تاريخ كل مقال؟ لماذا لم يكتب وكفى؟!

عمداء الحركة الأسيرة يتحدثون عن الدول التي يحمل أبناؤها الرتب و النياشين... الخ، فما رأيك بالمثل الذي يقول: "إن الجزائر بلد المليون شهيد وفلسطين بلد المليون عقيد". تحدثوا عن ما يسمى حقوق الإنسان، ودعاة الحرية والديمقراطية في أمريكا والغرب، وغيرها من مسميات كمجلس الأمن وهيئة الأمم ومحكمة العدل العليا... الخ. يا سيدي، ملّة الكفر واحدة.

نعم. لقد ركز الكاتب على قضية واحدة هي الأسرى من كل النواحي الإنسانية والنضالية وحتى التفاوضية حول الحقوق والواجبات، ونبّه بقلم اليقين المتمرس إلى قضية يجب أن تبحث متكاملة دون تجزئة جغرافية "القدس" 1948، 1967، أو فصائلي حزبي- حماس، الجبهة الشعبية، الجبهة الديمقراطية، فتح... الخ-، أو حتى نوع الحكم وشكله، أو أي تمييز كان. ثم إن الكاتب كتب خلاصة تجاربه في الأسر لكل الألوان، واعتبر أن ملف الأسرى يجب أن يكون من الثوابت الفلسطينية،

مهما كانت الانتماءات الحزبية و الفئوية، وأن حقوق الأسرى يجب أن لا تخضع لإملاءات و شروط المحتل .

(القدس 8/ 1/ 2009)

obeikandl.com